# الفصل الثالث

## العشيرة والقبيلة

## THE CLAN AND THE TRIBE

### (١)

كما استعمل العرب كلمة الرهط أو الاسرة أو الفصيلة للدلالة على أصغر وحدة اجتماعية فى حياتهم كذلك استعملوا كلمة العشيرة وما فى حكمها كالفخذ والبطن والعمارة للدلالة على نوع آخر من نظمهم الاجتماعية هو نظام العشيرة

والعشيرة هى أصغر وحدة سياسية اجتماعية. وما الأفخاذ والبطون والعمائر إلا مجموعة من العشائر لم تصل بعد إلى مرتبة القبيلة . والحق الا فرق بين هذه الأقسام و بين القبيلة أو الشعب إلا من حيث الحجم ودرجة البعد من الأصل المشترك[١]

وكلما تعمقنا فى دراسة الحياة الاجتماعية عند الساميين القدماء كلما اتضح لنا أن محور هذه الحياة فى أقدم مراحلها كان يدور حول العشيرة لا حول القبيلة إذ النظام القبلى لم يظهر إلا متأخراً فى حياة الساميين[٢] وذلك عندما اضطرت العشائر إلى أن تزدلف بعضها إلى بعض لضرورة حربية أو لأغراض اقتصادية.

وقد عرف العرب العشيرة فقالوا « هم الذين يتعاقلون إلى أربعة آباء »[٣] وشبهوها بأنها بمنزلة الساقين من الجسد اللتين يعتمد عليهما دون الأفخاذ .

---

(١) Smith, Kinship, p. 5.

(٢) Lods, Israel, p. 244.

(٣) نهاية الأرب ج ٢ ص ١٦١

ومن ثم نرى أن العرب كانوا متنبهين إلى أن الافخاذ وما فوقها و إن كانت أكبر من العشيرة عدداً وأعظم حجما فهى أدنى منها شأنا وأقل خطرا ، إذ كانت العشيرة هى التى يُرجع اليها فى كل أمر جلل . ومن ثم قوله تعالى « وأنذر عشيرتك الأقربين » . وما ذلك إلا لأن العشيرة هى أهم جماعة سياسية وأقدمها فى حياة الساميين ، بل و بين الجماعات البدائية . فقد أظهر Davy أن أول جماعة تقابلها فى الجمعيات البدائية هى العشيرة وأن وظيفتها سياسية ومدنية و إن كانت ذات طبيعة شبه دينية[1] ؛ وقد ظلت كذلك بعد ظهور النظام القبلى وظلت محتفظة بذاتيتها وأهميتها ضمن النظام القبلى حتى أننا لا نستطيع إلى الآن أن نحدد بالضبط ماهية العلاقة بين شيخ العشيرة وشيخ القبيلة .

وكثيرا ما كان العرب يستعملون كلمة الحى لمعنى العشيرة وكذلك فعل العبرانيون فقد كانوا يستعملون للدلالة على العشيرة كلمتى « مشفحة » و « حى » وأحياناً « عم »[2].

وقد أظهرت البحوث الحديثة أن العشيرة قد نمت من الأسرة القديمة بعدد من الطرق والأساليب التى أدت إلى تقسيم خاص و إلى عزلة جانبية[3] وسرعان ما أصبحت حياة الفرد السامى خاضعة للعشيرة ولم تعد الأسرة على أهميتها تساهم فى الحياة الاجتماعية إلا بقدر يسير زادت أهميته بزيادة نفوذ العشيرة[4]

وقد عرف علماء الاجتماع العشيرة بأنها « قسم — خارجى الزواج — من قبيلة يمت بعض أعضائها إلى بعض بروابط مشتركة كاعتقادهم فى التحدر من أصل

---

(١) Moret and Davy, From Tribe to Empire, p. 12.

(٢) سفر صموئيل الأول اصحاح ١٨ آية ١٨ وسفر الملوك الثانى اصحاح ٤ آية ١٣.

(٣) Lowie, p. 157.

(٤) E. Day, The Social Life of the Hebrews, p. 24

واحد مشترك أو أنهم يمتون إلى طوطمية مشتركة أو يقطنون اقليما مشتركا»[١]

ويرى بعض العلماء أن فى هذا التعريف شيئاً من الابهام ويبدو أن ذلك قد نشأ من استعمال كلمة Clan التى اشتقها العلماء الانجليز من النظام الاجتماعى الموجود فى اسكوتلنده وهو نظام يقرب من نظام القبيلة[٢] . ومن أجل هذا اقترح السير جيمس فريزر Sir james Frazer استعمال كلمة Kin بدلا من Clan فهو كلما تحدث عن العشيرة الطوطمية استعمل totem-kin أما العلماء الامريكان فقد استعملوا كلمة Gens للدلالة على عشيرة الأبوة أى التى يكون النسب فيها إلى الأب واستعملوا كلمة clan للدلالة على العشيرة التى يكون النسب فيها إلى الأم . وقد اقترح رفرز Rivers كلمة sept للدلالة على العشيرة ومع هذا فقد آثر أن يتبع العرف المصطلح عليه ويستعمل كلمة Clan أما لوى Lowie فيستعمل كلمة Sib بدلا من Clan[٣] .

وقد اخترت هنا كلمة « العشيرة » للدلالة على المعنى المقصود من كلمة Clan عند علماء الاجتماع الانجليز والفرنسيين

---

(١) Anthropological Notes and Queries; The Handbook of Folklore, p. 295.

(٢) Rivers, p. 20.

(٣) Lowie, p. 105.

## (٢)

# أنواع العشيرة

والعشيرة أنواع أهمها : —

أولا — العشيره الطوطمية Totemic Clan وهى التى يعتقد أعضاؤهاأنهم يمتون بصله النسب إلى نوع من الحيوان أو النبات أو الجماد يسمى « طوطم » Totem والطوطم الحيوانى أعظمها شيوعا . وتختلف طبيعة العلاقة إلى الطوطم باختلاف الأماكن ففى بعض جهات ميلانيزيا يعتقدأعضاءالعشيرةأنهم متحدرون من الطوطم نفسه .وفى بعض الجهات الأخرى يظن أعضاءالعشيرةأنهم متحدرون من شخص — رجلا كان أو امرأة — له علاقة من بعض الوجوه بالحيوان أو النبات أو الجماد الذى يكون الطوطم . وقد عرف دوركيم Dorkheim العشيرة الطوطمية بأنها « مجموعة من الأفراد يعتبرون أنفسهم مشتركين فى القرابة ولكنهم يميزون هذه القرابة بعلامة خاصة وهى أنهم جميعا يحملون اسم طوطم واحد. وهذا الطوطم هو كائن حى أو غير حى ولكنه فى الغالب حيوان أو نبات تعتقدالجماعة أنهامتحدرة منه وأنه شعارها وبه تسمى . فان كان الطوطم ذئبا مثلافجميع أعضاء العشيره يعتقدون أنهم متحدرون من الذئب وأن دمه يجرى فى عروقهم . وهذا هو السبب فى أنهم يطلقون على أنفسهم « بنى ذئاب » أو « بنى دياب » [١]

وقد أورد دركيم Dorkheim نفس هذا التعريف فى كتاب آخر[٢] وأصر

---

(١) Annee Sociologique, Paris Vol. iv, pp2-3.

(٢) The Elementary Forms of Religious Life, p. 102.

على أهمية جانب التسمية إذ الاسم هو الذى يكون العشيره ، وهذا الاسم يدل تارة على الطوطم وتارة على الجد الأعلى الذى تحدر منه أفراد العشيرة

ومن ثم نرى أن العشيرة بهذا التعريف هى نوع من الأسرة إذ أنها مكونة من أناس يعتبرون أنفسهم متحدرين من أصل واحد مشترك ، ولكنها تتميز عن الأنواع الأخرى للاسرة بأن النسب فيها قائم على أساس الاشتراك فى الطوطم لا على علاقة الدم ، وعلى هذا فجميع أفراد العشيره هم ذوو قربى لا لأنهم إخوه أو آباء أو أعمام أو بنو أعمام بل لأنهم جميعاً ينتسبون الى الحيوان أو النبات الذى يكون الطوطم و يحملون اسمه ولهم نفس طبيعته ، والطوطمية totemism منتشرة فى جميع أنحاء الدنيا فهى موجودة فى أمريكا واستراليا وميلانيزيا وافريقية و بعض أجزاء آسيا (١)

أما عن النظريات المتعلقة بالطوطمية فليس هذا موضع شرحها وعلى من أراد أن يطلبها فى المطولات ، وأما عن الطوطمية عند الساميين فسنتحدث عن ذلك فى موضع آخر

ثانيا — العشيره الطوطمية الأقليمية

Territorial tie of the totemic Clan

يوجد نوع آخر من العلاقة الطوطمية بين أعضاء العشيرة ونعنى بذلك علاقة الاقليم ، وفى هذه الحاله يعتقد أعضاء العشيرة أن الرباط الذى يصل بينهم هو اشتراكهم جميعا فى طوطم واحد يشغل قرية معينة أو إقليما محدودا ، ويرى بعض العلماء أن الذى يحدث حقيقة فى معظم الحالات الطوطمية هو أن عدداً

---

(١) Lowie, Primitive Socity, p. 131.

من الجماعات الطوطمية تشترك فى شغل قرية او إقليم معين وان بعض هذه الجماعات يختلط بالبعض الآخر دون تميز موضعى بين أفراد هذه الجماعات رغم اختلاف طوطم كل منها (١)

ثالثا — العشيرة الأقليمية Territorial Clan

فى هذا النوع من العشيرة لا يوجد أثر للطوطمية مطلقاً بل إن الرباط الوثيق الذى يصل بين أعضائها هو أنها تسكن اقليما واحداً مشتركا . وفى هذه الحالة يعتقد أهل ذلك الاقليم أو القرية أو البقعة أن بعضهم ينمت إلى بعض بحكم السكنى والجوار فى الديار . ونحن نجد هذا النوع من العشيرة بين الجماعات التى نبذت البداوة المحضة وشرعت فى الاستقرار (٢) وهذا النوع فى طوره الأول يكاد يوجد دائماً إلى جانب العشيرة الطوطمية ولكن سرعان مايتغلب عليها ويقضى على الطوطمية بالكلية . وذلك لأن فلح الارض والاستقرار فيها هو أغرى للرجال وأوثق لقلوبهم وأشد سلطانا على نفوسهم. وسرعان مانجد الاستقرار والاشتراك فى الحياة الموضعية قد غدا معينا لعادات تصبح مقبولة بالضرورة وتتأصل فى النفوس إلى حد أن تخلق غريزة الاجتماع والوحدة والتعاون ويصبح الانسان مدنيا بالطبع

ولم يكن الاستقرار والاشتراك فى الحياة الموضعية هو وحده الحافز على تكوين هذه الاقسام الاقليمية داخل الجمعيات البشرية بل ثم حافز آخر وهو نمو العشيرة واتساعها وشعورها بالحاجة الى الانقسام الى أقسام مماثلة يظهر أثرها فى شكل

---

(١) Rivers, p. 22.

(٢) Moret andDavy,p. 55

جديد . وهذه الأقسام هى التى يسميها «دوركيم» باسم Segments[١] أى مجموعة العشائر وهى فى رأيى تقابل مايسميه العرب بالأفخاذ والبطون والعمائر . ودليلنا على ذلك أن علماء الاجتماع أنفسهم قد صعب عليهم أن يحددوا بالضبط الجماعة الاقليمية وذلك لاختلاف أحجامها وتعدد أنواعها ، فهم يقولون إنها قد تكون كبيرة الحجم إلى حد أنها قد تأخذ شكل القبيلة ، وقد تكون أحياناً صغيرة إلى درجة أنها تشبه الفصيلة ، وقد اعترف هوت Howitt[٢] بأنه لم يستطع فى كثير من الأحيان أن يقرر نوع الجماعة التى يعالجها ، ومن ثم يتبين لنا أن المعنى الذى يقصده علماء الاجتماع من «العشيرة الاقليمية» أو « الجماعة الاقليمية » يكاد يضارع المعنى الذى يقصده العرب من كلمة «الحى» وأرى أن هذه الكلمة هى خير اصطلاح نطلقه على مايسميه علماء الاجتماع territorial clan

ويرى العلماء أن العشيرة الاقليمية أو بعبارة أدق الجمعية الاقليمية تمثل مرحلة أرقى فى التطور الاجتماعى وأنه كلما تقدمت الجمعية الاقليمية كلما تضاءلت العشيرة القديمة المسماة بالطوطمية إلى أن تختفى بالكلية فى النهاية[٣] وقد ذكرنا آنفاً أن العلاقة الاجتماعية التى تصل بين أعضاء العشيرة الطوطمية هى علاقة النسب إلى طوطم واحد ينتسبون إليه ويحملون اسمه . أما العلاقة التى تربط أعضاء الجمعية الأقليمية التى استقرت فى بقعة محدودة خاصة بها فهى علاقة الأرض

---

(١) Dorkheim, La Division du Travail Social, 2nd ed. 1902, p. 150, also, Les Regles de la Methode Sociologique 7th ed. Paris 1919, p. 103.

(٢) Howitt, The Native Tribes of South-East Australia, London 1904

(٣) Moret and Davy, From Tribe to Empire, p. 57.

التى يسكنونها والطينة التى يفلحونها أو ترعى دوابهم كلأها[١] أو بعبارة أخرى هى علاقة «الحى» و «الحمى» وعلاقة الجوار فى الديار.

على أن من المحتمل أن تكون العلاقة الاقليمية هى محض تعبير آخر عن الانتساب إلى سلف واحد وأن أهل قرية أو اقليم يؤلفون عشيرة واحدة لأنهم متحدرون حقيقة من جد أعلى مشترك[٢]

ومهما يكن من أمر فالعشيرة الاقليمية تمثل النوع الذى كان شائعاً عند الساميين فى فجر التاريخ. ولنول الآن وجهنا شطر نظام العشيرة عند الساميين فنقول : —

---

(١) Cf. Sumner Maine, Notes on the History of Ancient Institutions, p. 91.

(٢) Cf. Rivers, p. 22.

# (٣)

# الساميون والطوطمية

## THE SEMITES AND TOTEMISM

هل مارس الساميون الطوطمية ؟

هذا سؤال طالما يحسن الخوض فيه ، وللاجابة عليه يجب أن أقول ـ ذاعت نظرية الطوطمية totemism فى النصف الأخير من القرن الماضى فخلبت أفئدة العلماء وبهرت عقولهم وافتتنوا بها افتتانا كبيرا

وكان أن سحرت كذلك لب العلامة ربرتسن سمث فراح يطبقها على العرب وراح يبرهن على أن قدماء العرب قد مارسوا الطوطمية وذلك فى مقال نشره بالمجلة اللغوية عام ١٨٧٩ [١] ثم فيما كتب من بعد ، ومنذ ذلك الحين صب على قالبه أساتذة آخرون منهم Wilken و Stade و Joseph Jacobs و Gray و Stanly-Cook و Barton ولكن الأخير قد عاد فعدل عن رأيه

وقد بنى ربرتسن سمث نظريته فى الطوطمية عند العرب على أمور منها :

أولا — أن كثيراً من القبائل العربية كانت تتسمى بأسماء الحيوان [٢] وأن آثار هذه التسمية قد ورد ذكرها فى التوراة .

ثانيا — أن بعض العرب كانوا يعتقدون أنهم متحدرون حقيقة من الحيوان الذى ينتسبون إليه .

---

(١) Smith, Journal of Philology ix, p. 75 ff.

(٢) Ibid p. xx 79-88

ثالثا — ان العرب كانوا يعبدون آلهة فى صورة الحيوان [١]

رابعاً — انهم كانوا يعتقدون أن بعض الحيوانات انما هى رجال مسخت وكانوا يحجمون عن أكل بعض أنواع الحيوان ظنا منهم أنها أناسى متنكرة .

خامسا — أنهم كانوا يعتقدون أن الجن شركاء لله وهو يرجح أنها آلهة قديمة مهجورة وكان العرب يظنون أن الجن تظهر فى هيئة انسان أو وحوش مكسوة بشعور طويلة [٢] .

والنتيجة التى وصل إليها ربرتسن سمث هى أن جميع الساميين لابد أن مارسوا الطوطمية فى مرحلة من مراحل تطورهم الاجتماعى وأن آثار الطوطمية إنما بقيت فى جزيرة العرب لأن النظم الاجتماعية والسياسية قد تقدمت عند الشعوب السامية الأخرى فى عصر قديم جداً بينما ظل العرب على حالهم احقابا طوالا [٣]

ولكى نقيم الدليل على وجود الطوطمية عند شعب من الشعوب يجب أن نبحث عن امارات خاصة وهى :

أولا : تسمية العشائر بأسماء الحيوان أو النبات .

ثانيا : اعتقاد أعضاء العشيرة فى أنهم يمتون بعلاقة الدم إلى ذلك الحيوان أو أنهم متحدرون من ذلك النبات الذى اتخذوه لهم طوطما .

ثالثا — تعظيم الطوطم وتقديسه ورفعه إلى مقام العبادة واتخاذه الهاللعشيرة ويترتب على ذلك عدم استعمال حيوان الطوطم كطعام عادى .

---

(١) Kinship. p. 192-201 and Wellhausen. Reste Arabische Heidentums. p. 19-23.

(٢) قارن Religion of the Semites p. 357

(٣) أنظر Kinship, 2nd ed. 252.

رابعا — أن تحتوى القبيلة على عدة جماعات لكل منها علاقة خاصة بنوع مختلف من الطوطم .

فاذا وجدنا هذه الأمور مجتمعة فى قبيلة من القبائل كان ذلك برهانا بينا ودليلا ماديا على أنها قبيلة طوطمية . على أننا فى كثير من الأحوال قد لانجد هذه العلامات فى صورتها البدائية البحتة وخاصة عند الشعوب القديمة إذ قد يحدث أن تتطور هذه العلامات إلى حد كبير فى داخل الجماعة نفسها كما حدث عند قدماء المصريين مثلا . فمن ذلك أن طوطم العشيرة الذى كان يعبد أولا فى صورة حيوان قد يظهر بعد ذلك فى هيئة إنسان ليس له من صفات الحيوان إلا قليل .

فالأستاذ سلجمان مثلا يعتبر قدماء المصريين من الأمم التى كانت تمارس الطوطمية قطعا ومع هذا فقد عجز أن يجد من الشواهد ما يدل على أن كان للحيوانات علاقة بالنظام الاجتماعى أو بالعبادة عند البيجا وهم من القبائل الحامية نعم إنه وجد الوثنيين من الحاميين الذين يسكنون فى جهات الحبشة يقدسون بعض الحيوانات كالضبع والحية والتمساح والبوم ومع هذا لم يجد من الأسباب ما يحمله على القول بأنه كان لهذه الحيوانات علاقة بالطوطمية (١) .

وهذه نقطة هامة يجب أن نلاحظها دائما عند بحثنا فى طوطمية الساميين .

---

(١) Seligman, C. G. «Some aspects of the Hamitic Problem in the Anglo-Egyptian Sudan» in JRAI, Xliii. 1913.

## ( ٤ )

## تسمية العشائر باسماء الحيوان عند الساميين

إذا ولينا وجهنا شطر قدماء العرب وجدنا أن كثيراً من قبائلهم قد تسمت بأسماء الحيوان وقد ترجع هذه الأسماء إلى عصور ما قبل التاريخ و بعضها بصيغة المفرد و بعضها بصيغة الجمع مثل كلاب وأنمار وأراقم وضباب وغيرها . وهذه تشبه بالضبط أسماء القبائل الطوطمية الموجودة في أمريكا وأوستراليا .

و يبدو أن لم يكن ثم فرق بين صيغة المفرد وصيغة الجمع فى مثل كلب وكلاب والنمر والنميرون فقد ذكر المبرد فى الكامل [1] أن « أمثال قولهم الأزارقة والمهالبة والمناذرة يرجع إلى باب من النسب وهو أن يسمى كل واحد منهم نميراً أو أشعر فهذا يتصل فى القبائل » . ومن أسماء القبائل عند العرب :

١ ـــ أسد ـــ وهو اسم يطلق على عدة قبائل منها أسد بن خزيمة من معد و بنو أسد بن عبد مناة وأسد بن مرّ من مذحج وأسد بن عبد العزى فى قريش و بنو أسد بن الحارث فى الأزد . و يقول ابن دريد [2] أن أسد والأزد مشتقان من أصل واحد وأن الأزد بالألف واللام دائما . والأزد بن الغوث من قبائل اليمن ولها عدة فروع . ومن قبائل الأسد أيضاً بنو أسد و يقول الهمدانى [3] إنها

---

(١) الكامل للمبرد باب النسب إلى المضاف .

(٢) ابن دريد كتاب الاشتقاق ص ٢٥٨

(٣) الهمدانى صفة جزيره العرب ص ١١٨

كانت فى عنز . وذكر ابن دريد بنى فرهود بن شبانة ويقال لهم الفراهيد [١] . والفرهود ولد الأسد فى لغة أزدعمان . ولبوان وهى بطن معافر ولبأ وهى قبيلة كبيرة من عبد القيس ، والليث وغير هؤلاء من القبائل .

٢ ـــ النمير ونمير وأنمار ـــ وهى أسماء أطلقت على كثير من عشائر العرب وقبائلهم وكان سكان حران يعرفون فى السريانية باسم ( برْنَمْرى ) أن بنو النمر ويقال إنهم كانوا يعبدون إلها يسمى فى السريانية ( نمرا ) أن النمر . وذكر الدميرى [٢] أن النمر كان يكنى بأبى عمرو كما كانت الضبعة تكنى بأم عامر .

٣ ـ فهد ـ وقد تسمت به إحدى عشائر كلب .

٤ ـ بهته ـ نوع من الظباء والآرام ـ وهو اسم لبطن من قيس عيلان ولبطن من ضبيعة ، و يبدو أن الرئم كان مقدساً فى حمير على وجه الأخص ، فقد ذكر ابن الكلبى فى كتاب الأصنام أنه كان لحمير بيت بصنعاء يقال له رئام [٣] يعظمونه و يتقربون عنده بالذبائح فلما انصرف تبع من مسيره الذى سار فيه إلى العراق قدم معه الحبران اللذان صحباه من المدينة فأمراه بهدم رئام ففعل وتهود تبع وأهل اليمن ومن ثم لم يسمع بذكر رئام فى شىء من الأشعار ولا الأسماء ، ويقول روبرتسن سمث [٤] إن الرئام والظبيان والغزلان بأنواعها المختلفة كانت مقدسة فى كثير من أجزاء العالم السامى وأنها ظلت تعبد إلى عصر متأخر فى بيوت الأصنام فى مكة وتيالة وغيرها

---

(١) ابن دويد ص ٢٩٤

(٢) الدميرى حياة الحيوان ج ٢ ص ٨٩٣

(٣) كتاب الاصنام لابن الكلبى ص ١٠ ، ١١

(٤) Smith. the Religion of the Semites. Note F.

وقد وجدت صورها فى فينيقية منقوشة على الأحجار الكريمه وعلى نقود مضروبة فى اللاذقيه . وقد أورد سمث(١) ما نقله شبرنجر عن ابن المجاور فقد ذكر أن قبيلة بنى الحارث باليمن كانوا إذا مات غزال قاموا إليه فغسلوه وكفنوه ثم دفنوه ولبسوا عليه الحداد سبعة أيام كأحد أفراد القبيلة . وهذه ولا ريب ظاهرة طوطميه تشبه تلك الموجودة بين قبيلة البومه فى ساموا ، وتذكرنا بما كان يفعل قدماء المصريين من تكفين حيواناتهم المقدسه ، ومن الشواهد التى قد تؤيد ما ذكره ابن المجاور أن ديار بنى الحارث كانت تدعى « دار الغزيل » تصغير « غزال » وقد أوردها ياقوت (٢) فيما أورد من ديار العرب . ولكن الأصمعى لم يذكر هذا الاسم فى كتابه دارات العرب ولعل ذلك لأنه اقتصر على ست عشرة دارة منها . أما الفيروزابادى فقد جمع ما لم يجمع غيره من دارات العرب وهى تنيف على مائة وعشر . وذكر من بينها « دارة الآرام »

ونحن لا نرى فيما أورد سمث من رواية ابن المجاور دليلا على أن العرب كانوا يمارسون الطوطمية قطعا . فتعظيم قدماء العرب لبعض أنواع الحيوان كان يرجع ولا ريب إلى أنهم كغيرهم من الأمم القديمة كانوا يعتقدون أنها تشترك مع الانسان فى بعض الصفات الشخصية . ومن أجل ذلك كانوا يمتنعون من أكل لحومها . وقد شاهد بعض الرحالة إحدى قبائل البيجا بالقرب من سواكن لا تأكل لحم الغزال مطلقا كما يقال إنه كان من عادة بعض القبائل التى كانت تسكن أرض البشارية أنهم إذا مات حيوان من أنعامهم دفنوه باحتفال مهيب(٣).

---

(١) Ibid, Note A.

(٢) انظر معجم البلدان ج ٢ ص ٢٦٥ طبعة اوربا

(٣) انظر G.W. Murray «Graves of Oxen in the Eastern Desert of Egypt» in JEA, Xii 1926.

ويبدو أن العرب فى الجاهلية كانوا يعتقدون أن للظباء والآرام والغزلان قوة خفية كما لغيرها من كثير من أنواع الحيوان وأنها قادرة على البطش والانتقام وذلك ظاهر من الأساطير التى ظلت متداولة إلى ما بعد ظهور الاسلام . فقد ذكر الدميرى نقلا عن مجاهد أن تجاراً من الشام دخلوا مكة فى الجاهلية بعد قصى بن كلاب « فنزلوا بوادى طوى تحت سمرات يستظلون بها فاختبزوا على ملة لهم ولم يكن معهم ادم فقام رجل منهم إلى سهمه فرمى ظبية من ظباء الحرم وهى حولهم ترعى فقاموا إليها فسلخوها وطبخوها ليأتدموا بها . فبينما هم كذلك وقدرهم على النار تغلى بها و بعضهم يشوى إذ خرجت من تحت القدر عنق من النار عظيمة فأحرقت القوم جميعاً ولم تحرق ثيابهم ولا أمتعتهم ولا السمرات التى كانوا تحتها »(١) .

٤ ــ بدن ــ نوع من الوعل ــ وقد تسمت به بطن من كلب وعشيرة من بكر وائل وعشيرة وعلان من مراد . وقد ورد فى كتاب الاشتقاق لابن دريد ذكر عشيرة تدعى وعلة وكذلك فى ياقوت .

٦ ــ الضبع وضبيعة ــ وهو اسم أطلق على عدد من قبائل العرب ومن كناها أم خنور وأم طريق وأم عامر وأم نوفل . ومن كنى الذكر أبو عامر وأبو كلدة وأبو الهنبر . ويجيز الامام الشافعى أكل لحم الضبع إذ أنها ليست عنده من ذوات الناب التى نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن أكل لحومها . وهو يقول : ما زال لحم الضبع يباع بين الصفا والمروة عن غير نكر(٢) . أما أبوحنيفة

---

(١) الدميرى حياة الحيوان ج ٢ ص ١٢٨

(٢) الدميرى ج٢ص ٩٨

فقد حرم أكلها وهو مكروه عند مالك .

وفى البيهقى عن عبد الله بن مغفل السلمى قال : قلت يارسول الله ما تقول فى الضبع ؟ قال : لا آكله ، ولا أنهى عنه .

ولعل بعض عشائر العرب قد أحجموا عن أكل الضبع لاعتقادهم أن لها صلة بالآدميين لأنها تحيض كما تحيض أنثى الانسان . أو لعل هذا الاحجام كان متوارثاً منذ قديم الزمان . ومن ثم فهى عادة تشبه العادة المتبعة عند القبائل الطوطمية ومن الشواهد الدالة على أن العرب كانوا يعتقدون بوجود صلة خاصة بين الضبع وبين بعض الرجال ما ذكره الدميرى من أنه كان « فى العرب قوم يقال لهم الضبيعيون لو كان أحدهم فى قفل فيه ألف نفس وجاء الضبع لا يقصد أحداً سواه » ومن الواضح أن هذا الاعتقاد وما يشبهه عريق فى القدم . وقد يجد بعض العلماء فى هذا بقية من الطوطمية .

٧ ـ دب ـ اسم عشيره من أسبع كلاب وعشيرة من بكر وائل . ودب اسم امرأة من هذيل . ولا يزال الدب يوجد فى الجهات الجبلية من أرض هذيل .

٨ ـ ذئب ـ اسم عشيرة من الأزد وسرحان اسم عشيرة من أسبع كلاب وبنو سيد ذكرهم ابن دريد فى ضبة . وذؤيب ذكرهم الجاحظ فى ولد ربيعة نزار وكان العرب يعتقدون أن الرجل منهم إذا علق كعب الذئب الأيمن على رأس رمحه ثم اجتمع عليه جماعة لم يستطيعوا الوصول إليه ، وذلك ولاريب يشبه بعض مظاهر الطوطمية لأن الرجل يعتقد أنه فى حماية طوطمه :

وكانوا يعتقدون أن الذئب يفهم ويتكلم ويحاج ويناظر . فقد قال ابن عبدالبر وغيره أن الذئب كلم من الصحابة ثلاثة رافع بن عمير وسلمة بن الأكوع وأهبان بن أوس الأسلمى . ولذلك تقول العرب هو كذئب اهبان ، وذكر الدميرى

مارواه الحاكم فى مستدركه إذ قال « بينما راع يرعى بالحرة إذ عدا الذئب على شاة فحال الراعى بينه و بينها فأقعى الذئب على ذنبه وقال ياعبد الله تحول بينى و بين رزق ساقه الله إلى . فقال الرجل واعجبا ذئب يكلمنى . فقال الذئب ألا أخبرك بأعجب منى هذا رسول الله ﷺ بين الحرتين يخبر الناس بأنباء ماقد سبق . فزوى الراعى شياهه إلى زاوية من زوايا المدينة ثم أتى النبى ﷺ فأخبره فقال صدق والذى نفسى بيده »[١]

ومثل هذا الاعتقاد شائع فى كثير من الأمم وهو يرجع ولا ريب إلى عصر سحيق فى القدم ولا أظنه يدل حتما على الطوطمية .

٩ — ثعلب وثعلبة وثعالب — وهى أسماء أطلقت على كثير من العشائر فمن ذلك ثعالب طىء وثعلب اسم عشيرة فى كلب ويطلق ثعال على بعض عشائر طىء وغيرها .

١٠ — ثور — وهو اسم يطلق على قسم من كلب فقد ذكر ابن دريد أن قبائل كلب كانت منقسمة إلى قسمين كلب وثور . وذكر ابن خلكان[٢] ثلاث عشائر تسمت باسم الثور ، وعجل اسم عشيرة فى بكر وائل ، وقد عبد الساميون الشماليون العجل وورد ذكره فى قصة موسى فى التوراة وفى القرآن .

١١ — عنز — اسم قبيلة من وائل ، وقد وجد الهمدانى قبيلة تدعى عنز فى جرش باليمن ، وعنزة وكانت تعبد صنما يقال له سعير .[٣]

١٢ — فهد — وهو نوع من الجدى الحجازى على مايقول ابن دريد وجمعه

---

(١) الدميرى جزء أول ص ٤٧
(٢) ابن خلكان رقم ٢٦٥
(٣) كتاب الأصنام ص ٤١

فهاد ، وقد أطلق على بطن من كعب .

١٣ ـ جعده ـ بطن من كعب بن ربيعه . ويقال انها كلمة يمنية ، ويقول البكرى ان الكبش كان يعبد فى بعض قبائل البربر .

١٤ ـ جحش ـ بطن من العرب .

١٥ ـ كلب وكلاب وكليب ـ وهى أسماء أطلقت على كثير من قبائل العرب ومنها كلب بن ربيعة ومكالب بن ربيعة وكليب بن يربوع و بنو الكلبة والكلبة لقب مية بنت علاج بن شحمة العنبرى و بنوها بنو الكلبة .

وقد نشبت بسبب الكلبة حروب بين بعض قبائل العرب وذلك ظاهر من سياق القصة التى أوردها الجاحظ[1] فى سبب خروج مالك بن فهم بن غنم بن دوس إلى أزد شنوءة من السراة ، فقد كان السبب أن بنى اخته قتلوا كلبة لجارهم وكانوا أعد منه فغضب ومضى وسمع النجد الذى هبط فيه نجد الكلبة ، فما كان الرجل ليغضب و يستعد لقتالهم لو لم يكن يعتقد أن الكلبة بمثابة طوطمة ولا نستطيع أن نقيس على ذلك حرب البسوس بين كليب وجساس فلها سبب آخر ولكنا نستطيع أن نقيس عليها حرب الفجار الاولى التى كادت تقع بين كنانة وقيس عيلان بسبب قرد قتله الكنانى فى سوق عكاظ . ففى كلا الحادثين قد يجد أصحاب الطوطمية شيئاً من آثارها رغم ما ذكر نقلة الأخبار من تعليل ورغم ما نعلم من أن العربى كان يستميت فى الذود عما فى حوذته . و يبدو أن العرب كانوا قديماً يعلقون أهمية كبرى على نباح كلاب الحوأب إذ يبدو أنهم كانوا يذهبون إليها للاستخاره والعرافة كما كانوا يفعلون فى زجر الطير وكما كان يفعل الاغريق

---

(١) الجاحظ كتاب الحيوان ج أول ص١٥١

فى طلب العرافة من آلهتهم ، فكانت هذه الكلاب إن نبحتهم تشاءموا واقلعوا عن أمرهم و إن لم تنبحهم تفاءلوا ومضوا لشأنهم ، وقد ظل هذا الاعتقاد إلى ما بعد ظهور الاسلام ، ودليلنا على ذلك أن عائشة لما انصرفت فيمن معها إلى البصرة لحضور واقعة الجمل مرت بماء بنى كلاب فعوت كلابهم ، وسمعت عائشة نباح الكلاب فقالت أىّ ماء هذا فقال السائق لجملها الحوأب فتشاءمت واسترجعت وقالت إنى لهية قد سمعت رسول الله ﷺ يقول وعنده نساؤه ليت شعري أيتكن تنبحها كلاب الحوأب (١)

١٦ ـ قرد ـ وهو اسم فرع من هزيل وهو الفرع الذى منه عمرو بن معاوية ويظن سميث أن اسمه الحقيقى عمرو بن قرد وأنهم ربما كانوا فى الأصل من عبدة القرود ولا يزال القرد يوجد فى أرض هذيل

١٧ ـ نعامة ـ ومن ذلك بنو نعامة وهم بنو عمرو بن أسد

١٨ ـ غراب ـ اسم بطن من فزارة ، وللغربان علاقة بالنخل ذكرها الجاحظ فى كتاب الحيوان (٢) .

١٩ ـ حدأة ـ بطن من مراد .

٢٠ ـ حمامة ـ بنو حمامة بطن ازد .

و يبدو أن كانت الحمامة مقدسه عند الساميين الشماليين ولها علاقه بعبادة الآلهه عشتر أو عشتروث . وقد كشفت لنا الحفريات عن هيكل بناه الكنعانيون فى بيسان بفلسطين وأقاموا فيه صما للالاهة عشتر وهى تحمل فى

---

(١) مروج الذهب ج ٤ ص ٣٠٥ ، أيضا الطبرى ج ٦ ص ٣١٢٦

(٢) كتاب الحيوان ج٣ ص ١٤١

احدى يديها حمامة (١) .

وكان الحمام من بين الطيور التى عبد العرب أصنامها فى الجاهليه . وقد أقاموا له صنما فى الكعبه . فقد ذكر ابن هشام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل مكة وقضى طوافه « دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبه ففتحت له فدخلها فوجد فيها حمامه من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها(٢) » .

وكان الحمام مقدسا فى مكة فى الجاهليه ولا يزال يضرب المثل فى الأمن بحمام الحرم .

وكان الحمام يستعمل فى العصور القديمة كرمز لتقديس العهود والمواثيق ، وقد كان من بين الطيور التى قربها « ابرام » إلى ربه عندما عاهده كما تحدثنا بذلك التوراة(٣) « وابرام » هو الذى دعى فيما بعد باسم ابراهيم . ومن الأشياء التى نعاها اليهود على السامريين أنهم كانوا من عبدة الحمام ، ولقداسة الحمام كان بعض سكان سوريا لا يأكلونه ولا يلمسونه ، فاذا لمس أحدهم حمامة صار نجساً طول يومه(٤) .

٢١ — هوازن — ومفردها هوزن وهو نوع من الطيور كما يقول ابن دريد .

٢٢ — حنش وافعى واراقم وحية — قال ابن دريد بنو حنش بطن من الأوس ، وذكر الهمدانى جماعة آخرين هم بنو الافعى ثم الاراقم وهم عشائر من ثعلب ، ثم بنو حية ، وقد ورد فى الأغانى أنهم كانوا ملوك طىء فى أوائل الاسلام

---

(١) J.G. Duncan, Digging Up Biblical History vol. II p 89, 109.

(٢) ابن هشام ص ٨٢١

(٣) سفر التكوين اصحاح ١٥ آية ٩

(٤) انظر Smith, R. S., P. 294.

وقد كان للحية سهم معلى فى الأساطير السامية ، فالحية هى التى اغوت حواء وأخرجت آدم من الجنة ، وكان العرب يعتقدون أن الحيات كانت فى الأصل من الآدميين ثم مسخت كما مسخت القردة من بنى إسرائيل [١] . ولهذا كانوا يعتقدون أنها تعقل وتفهم وقد ظل هذا الاعتقاد إلى ما بعد ظهور الإسلام . فقد روى الحافظ عبد البر أن عقبه بن نافع لما فتح إفريقيه وقف على موضع يقال له القيروان وهو واد كثير الحيات . وقال : يا أهل هذا الوادى إنا حالون إن شاء الله قاطنون ، ثلاث مرات . قال : فما رأينا حجراً ولا شجراً إلا خرج من تحته حية حتى هبطن بطن الوادى ، ثم قال انزلوا باسم الله فاعمروا القيروان

وكانوا يعتقدون أن الشياطين تظهر فى هيئة الحيات ، وقد أورد الدميرى قصة الفتى الذى ذهب إلى منزله فوجد حية فقتلها وركز الرمح بالباب ثم اضطربت عليه فقتلته فجاء أصحابه إلى رسول الله لكى يدعو الله أن يحييه فقال استغفروا ربكم لصاحبكم ثم قال : « إن فى المدينة جنا قد أسلموا فاذا رأيتم منهن شيئا فآذنوه ثلاثة أيام فاذا بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فانما هو شيطان [٢] »

وكانت الحية تعبد عند الساميين ، وقد كشفت لنا الحفريات الحديثة عن عدد من الاصنام على هيئة الافاعى فى المعبد الشمالى الذى أقامه الكنعانيون لعبادة الأفعى بمدينة بيسان بفلسطين [٣] ويرجع تاريخ المعبد إلى زمن تحوتمس الثالث ( ١٥٠٠ — ١٤٥٠ ق م ) .

---

(١) الدميرى جزء اول ص ٣١٩

(٢) الدميرى أول ص ٣١٩

(٣) J. G. Duncan, op. cit., p. 107

و بيسان هى بالعبرية «بيت شان» ، وقد يكون معناها « بيت شعان » أى بيت الثعبان لأن الشين فى العبرية تقابل الثاء فى العربية غالبا ثم ان « شعان » أو سخان هو اسم اله بابلى على هيئة الثعبان (١) وربما كان الكنعانيون هم الذين جلبوا معهم عبادة الحيات والأفاعى من بابيلونيا الى فلسطين ، على أنه يحتمل كذلك أن تكون هذه العبادة قد جاءتهم من مصر ، ومهما يكن من أمر فنحن نعلم يقينا أن الاسرائيليين قد عبدوا الافاعى والحيات وأقاموا لها أصناما من نحاس ، وذلك واضح مما ورد فى التوراة فى سفر الملوك الثانى فقد ورد فى الاصحاح الثامن عشر أنه لما ولى حزقيا بن آحاز ملك يهوذا « أزال المرتفعات وكسر التماثيل وقطع السوارى وسحق حية النحاس التى عملها موسى لأن بنى اسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها ودعوها نحشتان »

ومن أسماء الحيوان التى تسمى بها العرب أيضاً ضب وعدل ( فأر ) وقنفذ وجمل وجندب وجراد ويربوع

ولا حاجة بنا إلى الافاضة فى شرح كل هذه الأسماء فقد أوردنا مافيه الكفاية للدلالة على أن العرب قد تسموا بأسماء كثير من الحيوان وأن ثم صلة وثيقة بين هذه الأسماء و بين كثير من معتقداتهم ، وفى كل هذا قد نجد بعض مظاهر الطوطمية (٢)

وقد وجدنا بعض العشائر الساميه الأخرى قد تسمت كذلك باسماء الحيوان ، وقد عكف الاستاذ « جرى » Gray على دراسه ماورد منها فى أسفار

---

(١) Ibid p. 108

(٢) لأجل اسماء الحيوان التى كانت تطلق على الالهة عند قدماء العرب أنظر Nielsen .Handbuch i, 192.

العهد القديم و وجد أنها تقع فى ثلاث مجموعات تحوى الأولى منها ثلاثة وثلاثين اسماً من أسماء الحيوان وتطلق على أماكن وتحوى الثانيـة أربعة وثلاثين اسماً وتطلق على عشائر وتحوى الثالثة ثلاثة وثلاثين اسماً وتطلق على أفراد[١]

هذا فيما يتعلق بتسمية القبائل والعشائر بأسماء الحيوان عن الساميين

وقد وجد ربرتسن سمث ومدرسته فى هذه التسمية أقوى دليل وأنصع برهان على أن العرب وسائر الساميين كانوا يمارسون الطوطمية قديماً .

ونحن لا نريد أن نتعجل فى الحكم ولا أن نطأ مواقع قدمه على غير هدى فقبل إصدار حكم خطير مثل هذا يجب أن نلج كل باب وأن نستقصى كل احتمال ممكن . والحق أن وجود هذه الأسماء بين القبائل العربية والسامية لا يبرر الجزم بوجود الطوطمية . ذلك لأن عدد هذه الأسماء قليل نسبياً لا يناهز الثلاثين إلى الأربعين . ونحن إن احصينا أسماء القبائل العربية وما بمت إليها من عمائر و بطون وافخاذ وعشائر وفصائل لبلغت عدة مئات[٢] .

ثم إن من تسمى منهم بهذه الأسماء قد يكون فعل ذلك لصفات ملحوظة أو لاعتبارات خاصة أو لظروف معينة . فقد كان الرجل منهم يسمى ولده أسداً أو ليثاً أو نمراً رجاء ان يصير جريئاً كالأسد أو سريع الوثوب كالنمر . وكان الرجل منهم يدعى احياناً ظبيان لسرعة عدوه . وقد يوصف بالحمار لشدة صبره واحتماله وهكذا

و يحدثنا بركهارت أن بدويا سمى ولده كلباً تفاؤلا بكلب كان موجوداً فى الخيمة وقت ولادته .[٣]

---

(١) أنظر G. B. Gray Studies in Hebrew Proper Names, p. 86ff

(٢) أنظر جورجى زيدان أنساب العرب القدماء

(٣) Burckhardt, Notes on the Bedouins and waha

وقد ذكر الجاحظ فى كتاب الحيوان أن « العرب إنما كانت تسمى بكلب وحمار وحجر وجمل وحنظلة وقرد على التفاؤل بذلك . وكان الرجل إذا ولدله ذكر خرج يتعرض لزجر الطير والفأل فإن سمع إنساناً يقول حجر أو رأى حجراً سمى ابنه به وتفاءل فيه الشدة والصلابة والبقاء والصبر وأنه يحطم مالقى . وكذلك إذا سمع إنساناً يقول ذئب أو رأى ذئباً تأول فيه الفطنة والمكر والكسب وإن كان حماراً تأول فيه طول العمر والوقاحة والقوة والجلد وإن كان كلباً تأول فيه الحراسة واليقظة وبعد الصوت والكسب » .

ونحن نعلم أن العرب كانوا يختارون أسماءهم لارهاب أعدائهم كما كانوا يختارون أسماء غلمانهم لمسرتهم ومسرة ضيوفهم . فقد سئل أبو العرفيش الأعرابى « لم تسمون أبناءكم بشر الأسماء نحو كلب وذئب وعبيدكم بأحسنها نحو مرزوق ورباح . فقال إنما نسمى أبناءنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا » .(١)

وهذا هو نفس مالاحظه « نولدكه » ولا ريب عندما راح يؤيد الرأى القائل بأن الأصل فى التسمية بأسماء الحيوان عند العرب إنما يرجع إلى نوع من الشعر الطبيعى « Natural poetry » . فكما أن البدوى راح ينتزع من الطبيعة أخيلته الشعرية كذلك مال إليها يستلهمها أو يستخيرها أسماءه الشخصية . « وإنه لمن الطبيعى حقاً أن يسارع البدوى الذى يعيش فى العراء إلى تسمية أبنائه بوحوش الصحراء . وهو مع هذا لم يختر أفخم الأسماء وأكرمها بل كان يسمى ولده بابشعها وأكرهها أملا فى ان يكون مرّاً غير سائغ لأعدائه »(٢)

---

(١) الدميرى ج ٢ ص٢٤٢

(٢) انظر ZDMG, 188, 160.

ومهما يكن من أمر فالنتيجة التى وصلنا إليها بعد كثير من البحث والاستقصاء هى أننا لا نستطيع ان نوافق على قول ربرتسن سمث ومدرسته بأن تسمية بعض قبائل العرب وغيرهم من الساميين بأسماء الحيوان هى دليل على انهم كانوا يمارسون الطوطمية .

نعم إننا لا ننكر أننا نجد فى هذه التسمية وفى علاقة الساميين بالحيوان بعض مظاهر تشبه تلك المتفشية بين الشعوب الطوطمية ولكن ذلك لا يستلزم انها ترجع قطعاً إلى اصل طوطمى .

obeikandl.com

( ٥ )

## الطوطمية وعبادة الحيوان عند الساميين

يرى أنصار الطوطمية فى تقديس الساميين لبعض أنواع الحيوان وتحريم لحومها دليلا آخر على أنهم مارسوا الطوطمية . وهم يعتمدون فى تأييد مذهبهم على ما ورد فى الآداب السامية من إشارات لعبادة الحيوان .

ونحن لا ننكر أن الساميين كـكل الأمم البدائية الأخرى كانوا يعتقدون أن ثم صلة وثيقة بينهم و بين الحيوان . وقد أشرنا إلى شىء من هذا آنفاً . ولـكن الذى ننـكره هو إرجاع ذلك إلى أن الأصل فى نظام العشيرة السامية كان النظام الطوطمى . فنحن نعلم أن البدوى لطول ممارسته عيشة الصحراء صار يستأنس بوحوشها و بهائمها حتى غدا يخيل إليه أن وحوش الصحراء أقرب إليه من جميع الـكائنات الأخرى ، حتى من الانسان نفسه .

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى  وصوت إنسان فـكدت أطير

وهو من أجل هذا كان يسكن إليها و يطمئن لها و يعتقد أن لها روحا كروحه ، ونفساً كنفسه وأحيانا كان يخشاها و يرهبها و يخاف نقمتها . وقد وجدنا صدى ذلك كله فى التوراة .

فقد ورد فى سفر الأمثال « الصديق يراعى نفس بهيمته »[1] . وفى سفر اللاويين « و إذا أمات أحد إنسانا فانه يقتل . ومن أمات بهيمة يعوض عنها

---

(١) سفر الأمثال اصحاح ١٢ آية ١٠

نفساً بنفس »[١] : وكانوا يعتبرونها مسئولة أمام القانون كالانسان[٢] . فهى تطالب بالدية وتعاقب كما يعاقب الانسان . فمن ذلك ما ورد فى سفر التكوين « وأطلب أنا دمكم لأنفسكم فقط من يد كل حيوان أطلبه ومن يد الانسان أطلب نفس الانسان »[٣] . وما ورد فى سفر الخروج « وإذا نطح ثور رجلا أو امرأة فمات يرجم الثور ولا يؤكل لحمه وأما صاحب الثورفيكون بريئاً »[٤] وكان إذا وضعت عليها فدية يجب أن تفتدى نفسها وتدفع كل ما يوضع عليها . فقد ورد فى سفر الخروج أيضا أن الثور « إن وضعت عليه فدية يدفع فداء نفسه وكل ما يوضع عليه . أو إذا نطح ابنا أو نطح ابنة فبحسب هذا الحكم يفعل به»[٥] وهى تعاقب على الزنا كالانسان فمن ذلك ما ورد فى سفر اللاويين « وإذا جعل رجل مضجعه مع بهيمة فانه يقتل والبهيمة تميتونها . وإذا اقتربت امرأة إلى بهيمة لتزانيها تميت المرأة والبهيمة إنهما يقتلان ودمهماعليهما »[٦] وكانوا يعقدون معهما العهود والمواثيق كما كانوا يعقدونها مع الانسان ومن ذلك ما ورد فى سفر التكوين « وها أنا أقيم ميثاقى معكم ومع نسلكم من بعدكم ومع كل ذوات الأنفس الحية التى معكم الطيور والبهائم وكل وحوش الأرض التى معكم ، هذه علامة الميثاق الذى أنا واضعه بينى وبينكم وبين كل ذوات الأنفس الحية التى معكم إلى أجيال الدهر »[٧] ، وما ورد فى سفر هوشع « وأقطع لهم عهدا فى ذلك

---

(١) سفر اللاويين اصحاح ٢٤ آيه ١٧ ، و١٨ .
(٢) انظر المسئولية والجزاء للدكتور على عبد الواحد وافى ص ١٢ — ٣١
(٣) سفر التكوين اصحاح ٩ آية ٥
(٤) سفر الخروج اصحاح ٢١ آية ٢٨ .
(٥) سفر الخروج اصحاح ٢١ آية ٣٠ ، ٣١
(٦) سفر اللاويين اصحاح ٢٠ آية ١٥–١٦
(٧) سفر التكوين اصحاح ٩ آية ٩ — ١٢ .

اليوم مع حيوان البرية وطيور السماء ودبابات الأرض »[١] .

وقد ذكرنا آنفاً أن العرب كانوا يعتقدون أن لبعض أنواع الحيوان قوة خفية وأنها قادرة على النفع والأذى والبطش والانتقام . وأن بعضها كان يرى ويسمع ويعقل ويفهم وينطق ويتكلم ، وقد أوردنا أمثلة من ذلك فيما سبق ونضيف إلى هذا ما ورد فى الصحيحين وسنن أبى داود والترمذى عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله فانها رأت ملكا ، وإذا سمعتم نهاق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان فانها رأت شيطانا »[٢]

أما من حيث عبادة الحيوان فليس لدينا دليل قاطع على أن الساميين عبدوها كما كان يفعل قدماء المصريين . وكل ما هنالك أنهم عبدوا أصناما وتماثيل على هيئة الحيوان ، وفى رأيى أن ما وردت الاشارة إليه فى التوراة من تسمية بعض الأماكن بأسماء الحيوان لا ينهض دليلا على أنها كانت مراكز لعبادتها قديماً كما زعم بعض العلماء[٣] .

ونحن نعلم يقيناً أن قدماء العرب قد عبدوا أصناما على هيئة الحيوان وقد أشار القرآن إلى ذلك فى قوله تعالى « ويغوث ويعوق ونسرا » وقد ذكر الزمخشرى فى تفسيره أن يغوث كان على هيئة الأسد ويعوق على هيئة الحصان ونسرا على صورة النسر

وكان يغوث يعبد فى قريش وبه تسمت ، كما كان يعبد فى أماكن أخرى ، فقد ذكر ابن هشام وياقوت[٤] أنه كان يعبد فى مذحج وكان مقره فى جرش ، وهى

---

(١) سفر هوشع اصحاح ٢ آية ٢٠

(٢) الدميرى حياة الحيوان ج أول ص ٣٨٧

(٣) قارن Bertholets, op. cit. P. III ff.

(٤) ياقوت معجم البلدان ج ٤ ص ١٠٢٢ . وابن هشام ص ١١٨ .

بلدة بشمال اليمن على رأس بيشه تبعا للهمدانى [١] . وأنه كان يسكنها عدد من قبائل اليمن المختلطة فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ و يقول الطبرى فى تفسيره كان يغوث لبنى غطيف من مراد بالجرف من سبأ[٢] وقد وقعت حروب بين بعض قبائل اليمن لاقتناء ذلك الصنم كان من بينها واقعة رزم بين بنى الحارث وهمدان ومعهم سدنة الصنم من جهة و بين مراد من جهة أخرى[٣] و إلى هذه الواقعة أشار الشاعر بقوله :

وسار بنو يغوث إلى مراد  فناجزناهم حتى الصباح

و يقول ابن الكلبى[٤] إن موضعه كان بأكمة باليمن يقال لها مذحج ، وكانت تعبده مذحج ومن والاها ، ومما قدمنا يتضح لأول وهلة أن عبادة الأسد كانت شائعة فى نجران وشمال اليمن وأن لها اتصالا وثيقا بالقبائل التى تسمت بالأسد .

و يرى ولهوزن Wellhausen[٥] أن يغوث ليس الاسم الحقيقى لهذا الصنم بل هو كنيته . وأن ارتباط هذه الكنية بصنم على هيئة الأسد هو دليل على أن هذه الكنية تخفى وراءها اسم اله قديم جدا قد يكون من أصل حامى

أما يعوق وهو صنم على صورة الحصان فكانت تعبده همدان ومن والاها من أرض اليمن[٦] وكان مقره بقرية يقال لها خيوان من صنعاء على ليلتين مما يلى مكة . ولم يسمع ابن الكلبى لهمدان ولا لغيرها فيه شعراً ولم يسمع أنها سميت به

---

(١) الهمدانى صفة جزيرة العرب ص ١١٨

(٢) تفسير الطبرى ج ٢٦ ص ٦٢ طبعة بولاق .

(٣) ياقوت معجم البلدان ج ٢ ص ٧٧٦ . ج ٤ ص ١٠٢٢

(٤) كتاب الأصنام لابن الكلبى طبعة زكى باشا ص ١٠

(٥) ولهوزن Wellhausen, Reste Arabische Heidentums p. 22

(٦) ابن الكلبى كتاب الأصنام ص ٥٢

ولا غيرها من العرب . وهو يعلل لذلك بقرب همدان من صنعاء واختلاطهم بحمير وتهودهم أيام تهود ذونواس .

ويبدو أن عبادة الخيل كانت تمارس كذلك فى البحرين أيام أن كانت تحت حكم الفرس . فقد ذكر البلاذرى أنه كان فى أرض البحرين خلق كثير من العرب من عبدالقيس وبكر بن وائل وتميم مقيمين فى باديتها . وكان عليهم من قبل الفرس عامل يدعى المنذر بن ساوى وهو أحد بنى عبدالله بن زيد المعروف بالأسبذى . «ويقال إنه نسب إلى الاسبذيين وهم قوم يعبدون الخيل بالبحرين»[1] فان صح هذا فربما كانت عبادة الخيل قد دخلت إلى جزيرة العرب من فارس . وقد لاحظ ياقوت أن كلمة الاسبذيين هى كلمة فارسية مشتقة من أسب أى الحصان

على أن عدم وجود شاهد على أن قبائل العرب قد تسمت باسم من أسماء الخيل هو أمر غريب فى حد ذاته . إذ ذلك مايجب أن يتوقعه أصحاب نظرية الطوطمية لأن الحصان لم يدخل فى جزيرة إلا فى وقت حديث نسبيا أى فى وقت متأخر بكثير عن الزمن الذى تكونت فيه العشائر الطوطمية إن كان ذلك قد حدث .

ولا نستطيع أن نستدل من وجود اسم مثل زيد الخيل على أن بعض قبائل العرب قد تسمت بأسماء الخيل . فنحن نعلم أن زيد الخيل رجل من أشراف طىء وأن اسمه كان فى الأصل زيد مناة وانه سمى زيد الخيل لكثرة خيله وولعه بها . وأن النبى صلى الله عليه وسلم سماه زيد الخير . ونحن نعلم فوق هذا أنه وقومه كانوا يعبدون الإبل لا الخيل ، وذلك صريح من رواية الأغانى ، فقد روى أبوعلى

---

(١) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٧٨

الأصفهانى أن زيد الخيل بن مهلهل وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه زيد بن سدوس النبهانى وقبيصة بن الأسود بن عامر وغيرهما من رجال طيء « فأناخوا ركابهم بباب المسجد ودخلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب فلما رآهم قال انى خير لكم من العزى ومما حازت مناع من كل ضارغير يفاع ومن الجمل الأسود الذى تعبدونه من دون الله عز وجل » (١)

وصريح من هذا أن ظيثا كانت تعبد جملا أسود ، وإذا أضفنا إلى ذلك ماذكره ابن الكلبى من أنه كان لطيء صنم يقال له الفلس وأنه كان على أنف أحمر فى وسط جبلهم الذى يقال له أرجأ كانت النتيجة التى يجب أن نصل إليها هى أن الفلس كان صنما على هيئة جمل أسود وأنه قد تآكل بفعل المؤثرات الجوية حتى كان يبدو للرائى « كأنه تمثال انسان » (٢)

وأما نسر فكان بموضع من أرض سبأ يقال له بلخع ، وقد عبدته حمير ومن والاها ولم يسمع ابن الكلبى له ذكراً فى أشعار حمير ولا أشعار أحد من العرب ولم يسمع حمير سمت به أحدا ، وهو يعلل لذلك بانتقال حمير أيام تبع عن عبادة الأصنام إلى اليهودية ، وهذا تعليل معقول يصح معه أن تكون العرب قد تسمت قديماً باسم من أسماء النسر فعلا ولكن هذه التسمية قد ضاعت فى مجاهل الزمن ولم يصل إلى ابن الكلبى ولا الينا شيء منها

وقد ورد اسم نسر فى النقوش القتبانية التى نشرها رودوكناكس

---

(١) انظر الأغانى ج ١١ ص ٤٨ :

(٢) ابن الكلبى كتاب الأصنام ص ٥٩

Rhodokanakis [١] وذكر ولهوزن Wellhausen [٢] أن العبرة الآتيـة قد وردت فى النقوش السبئية وهى «النسر الشرقى والغربى» وهو يرى أنها تشير إلى مجموعة الكواكب القريبة من المجرة أى أن عبدة النسر هنا لها اتصال بالكواكب

هذا وقد أورد ياقوت أبياتا نسبها إلى الأخطل واقترن فيها اسم نسر بالعزى وهذا نصها :

أما ودماء مائرات نخالهـا ... على قنة العزى و بالنسر عندما

وما سبح الرهبان فى كل بيعة ... أبيل الأبيلين المسيح بن مريما

لقد ذاق منا عامر يوم لعلع ... حساما إذا ماهز بالكف صمّما

والصحيح ماحققه زكى باشا من أن هذه الأبيات لعمرو بن عبـد الجن كما ورد فى اللسان [٣] وفى الطبرى [٤] .

وقد ذكرنا من قبل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دخل الكعبة بعد الفتح وجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها

هذا من حيث عبادة الحيوان فى جزيرة العرب ، وقبل أن نترك هذه النقطة يجمل بنا أن نقول كلمة قصيرة عن الآلهة التى ورد ذكرها فى النقوش المعينيـة والقتبانية لأهميتها فى دحض نظرية الطوطمية ، وسأراعى فى ذلك الايجاز مااستطعت . والحق أن مجموع أسماء الآلهة التى ورد ذكرها فى نقوش جزيرة العرب

---

(١) Katabanische Texte. Wien, I, 1919, p. 58 and 122.

(٢) Wellnausen, Reste Arabischen Heidentums, p. 23.

(٣) لسان العرب ج ١٣ ص ٦ .

(٤) الطبرى جزء ٣٠ ص ٩١٢

وغيرها من المصادر تبلغ أكثر من مائة [١] ولكن تمحيص هذه الأسماء وتحليلا تحليلها علميا دقيقا قد دل على أن معظمها نعوت وكنى تخفى وراءها الأسماء الحقيقية لتلك الآلهة وقد اعترف كل من رودوكناكس Rhodokanakis ونيلسن Nielsen بعجزهما فى معظم الأحيان عن ضبط نطق هذه الأسماء لأنها وردت فى تلك النقوش مكتوبة بالسواكن دون حركات

وقد عكف ولهوزن Wellhausen ورودوكناكس Rhodokanakis ونيلسن Nielsen على دراسة أسماء هذه الالهة ، وبدأ نيلسن بالشمس وهو يقول إن المعينين كانوا يعتقدون أنها إلاهة لا إله وأنها تمثل الشمس أو بعبارة أدق هى الشمس مؤلهة وهى فضلا على ذلك ترمز إلى الأمومة ، ويرتبط بعبادة شمس عبادة إله آخر يدعى سن أو ود وهو الاله القمر أو هو القمر مرفوعا إلى مقام الربوبية وهو أكبر الآلهة جميعا ، وهو فضلا على ذلك رمز الأبوة ويعرف هذا الإله أيضا باسم ود ، والثالث لهذين الاثنين إله يدعى عثتر وهو كوكب الزهرة وكان العرب يعتقدون أنه ولد الإلهين سن وشمس ممثلا فى الزهرة

ومن ثم ترى أن أقدم ثالوث عبده العرب فى رأى نيلسن هو ذلك الثالوث الكوكبى ، وهو يرى أن هذه الآلهة الثلاثة هى الأصل وأن كثيراً من الآلهة الأخرى مشتق منها إذ أن هذه الآلهة كانت تسمى بأسماء شتى أو بعبارة أدق كانت تنعت بصفات كثيرة أو يكنى عنها ببعض الأسماء ، ومن ثم تعددت الآلهة وكثرت

---

(١) D. Nielsen. Handbuch der Altarabischen Altertumskunde, Bd. I, Kopenhagen, 1927, p. 188.

أسماؤها فى النقوش التى تحدرت إلينا . فهو يعتقد مثلا أن الاله ود هو نفس الاله سن إله القمر وما « ود » إلا نعت من نعوته . وكذلك اللات والعزى هما نعتان للاهة شمس .

وهذا تفسير معقول ونحن نوافق عليه إذ له فى العربية أشباه ونظائر . فالعرب كانوا يكنون عن الشىء وكانوا يدلون عليه بصفة من الصفات . وقد تغلب هذه الصفة عليه فلا يعرف إلا بها . ثم إننا معشر المسلمين نطلق على الذات العلية اسم « الله » وهو اسم واحد . ومع ذلك فلله الأسماء الحسنى وهى تسعة وتسعون وما هى فى الحقيقة بأسماء إن هى إلا صفات قائمة بالذات .

ولكن بارتون Barton لا يوافق على ما ذهب إليه نيلسن من أن هذا الثالوث الكوكبى — شمس وسن وعشتر — هو أقدم ما عبد العرب وهو يقول إن الشواهد لا تزكى هذا الرأى ولا تؤيده إذ المعروف أن عبادة الآلهة الأرضية سابقة على عبادة الأجرام السماوية كما أثبت ذلك برستد Breasted بما استنبطه من عبادة قدماء المصريين . فديانة قدماء المصريين قد بدأت بعبادة آلهة أرضية فى صورة الحيوان ثم تطورت فكرة العبادة فصارت هذه الآلهة تعبد فى صورة إنسان ثم طفق المصريون يربطون هذه العبادة بالشمس وغدوا يظنون أن بعض هذه الآلهة هى والشمس شىء واحد .

ثم إننا إذا ولينا وجهنا شطر النقوش المعينية — وهى أقدم النقوش التى تحدرت الينا — وجدنا ثم ثلاثة آلهة تذكر دائما بهذا الترتيب :

عشتر — ود — نكرخ !

---

(١) قارن Barton G. A., Semitic and Hamitic Origins, p. 203

فلما انساب المعينيون إلى شمال جزيرة العرب خلفوا هناك طابعهم الذى لا ينمحى كما يظهر ذلك من النقوش الثمودية [١] . فقد وجدنا فى هذه النقوش أن تلك الآلهة المعينية الثلاثة تذكر كذلك على هذا الترتيب دون تغيير أو تحوير [٢] ومن اضطراد هذا الترتيب يتضح أن عثتر لابد أن كان كبير هذا الثالوث فى مرحلة قديمة أى قبل أن يصبح ود كبير الآلهة وقبل أن يطلقوا عليه اسم « أب » وقبل أن يسموا أنفسهم « أبناء ود » [٣] . فكل ذلك جاء فى مرحلة متأخرة بعد أن دخلت عبادة الكواكب الى جزيرة العرب ، و بعد أن شرع المعينيون يربطون آلهتهم الأرضية بالأجرام السماوية و بعد أن صار ود يمثل الاله سن اله القمر . ودليلنا على ذلك أن عثتر كان يعبد فى الأصل لا بوصفه اله الزهرة بل بوصفه الها أرضياً ، إله سقى النخل وجنى الثمار ، إله الخصب والنتاج . وهذا ظاهر مما ورد فى النقوش المعينية من القاب ونعوت كان يوصف بها فمن ذلك

---

(١) الرأى الذى عليه الجمهور هو أن النقوش الثمودية مكتوبة بخط المسند الذى حمله المعينيون معهم لما هاجروا إلى الشمال واستقروا بديدان أى العلا وأسسوا دولة شمالية لكن جرمه Grimme يخالف جمهور العلماء ويقول إن الخط الثمودى يحوى طرازا قديما من الحروف أقرب إلى خط طور سيناء القديم منه إلى المسند . وعلى هذا فلابد أن يكون الخط الثمودى هو الاصل الذى تحدر منه الخط المسند . ولكن العلماء لم يقبلوا هذه النظرية لعجز جرمه عن إقناعهم بوجود مثل ذلك الطراز الثمودى القديم . وفى رأيهم أن الشبه الذى يلاحظ بين الخط الثمودى وخط طور سينا الاصلى إنما جاء عرضا وبطريق المصادفة انظر See F. V. Winnett, A Study of the Lihyanite and Thamudic Inscriptions.

(٢) See, e. g. Hal. 255, and Eut. 22 (e. g. in Hommel's Chrestomathie) and Gl. 1150 in Rhodokanakis, Studien zur Lexikographie und Grammatik des Altsudarabischen, Wieu II 1917, p. 54

(٣) Nielsen. p. 217.

مثلا أن عشتر كان يدعى « واهب الماء » و « جانى الثمار »أو« جامع الحصاد»[١] ومن ثم يتبين لنا أن عشتر هو من أقدم الآلهة التى عبدت فى جزيرة العرب بوصفه اله السقى والماء والنخل والثمر والخصب والنتاج . وقد انتقلت عبادته من جزيرة العرب إلى جميع أنحاء العالم السامى كما سنبين ذلك فيما يلى .

أما فكرة ارتباط عشتر بالزهرة وانه يمثل ذلك الكوكب فربما كانت فكرة متأخرة نوعا ما جاءت تحت تأثير البابليين ، فقد كان جنوب جزيرة العرب بمثابة جسر تعبر عليه الحضارتان المصرية والبابلية منذ عصور ماقبل التاريخ ، وكان البابليون يعبدون إلاهة تسمى أشدر «عشدر» وقد قرنوا عبادة هذه الإلاهة بالزهرة قبل سنة ٢٠٠٠ ق . م[٢] ولعل المعينين قد أخذوا عبادة الزهرة فيما أخذوا عن البابليين ثم ربطوا عبادة هذا الكوكب باسم الاهتهم عشتر لتقارب الأسمين ، أو لعل عشتر قد رحل فى الأصل من جزيرة العرب مع الساميين القدماء إلى بابلونيا بوصفه اله الخصب والنتاج ثم عاد ثانيا إلى جنوب الجزيرة بعد أن تغيرت عبادته فى بابلونيا إلى كوكب الزهرة تحت تأثير الصومريين ، ودليلنا على ذلك ماذكره همل وسيس من أن عبادة الكواكب والأجرام السماوية لابد أن وردت من بابليونيا إلى جنوب جزيرة العرب وأن ماذكر من أسمائها وصفاتها فى النقوش الجنوبية إنما هو مشتق من أصل بابلى صومرى ، والنتيجة التى وصل اليها «سيس» هى أن عبادة الأجرام السماوية كانت عبادة دخيلة على العرب والساميين الغربيين وأنها لابد أن كانت نوعا قديما من العبادة البابلية وأنها دخلت إلى جزيرة العرب عن طريق « أور »ثم الى كنعان بعد ذلك بزمن طويل

---

(١) قارن Fell, ZDMG. 54, 1900, p. 233-238.

(٢) Barton, Royal inscriptions of Sumer and Akkad 1929 p. 238

حيث أصبح بعل — إله الكنعانيين القديم — يمثل الشمس وأصبحت عشتروث «عشتر أو عشتر» تمثل القمر (١)

لكن نيلسن يجحد هذا الرأى بشدة فى مؤلفه الأخير (٢) فقد راح يدلل بالشواهد العلمية الغزيرة على أن ديانة العرب القديمة هى أم الديانات السامية الأخرى وأنها كانت فى الأصل ديانة طبعية قائمة على عبادة الكواكب والاجرام السماوية ، وأن أقدم ثالوث كوكبى عبده العرب هو القمر ( الاله سن أو ود ) والشمس ( الالاهة شمس ) والزهرة (عشتر) وهو يرى أن هذا الثالوث الكوكبى تمثل الأب والأم والابن (٣) . فلما انتقلت هذه الآلهة الكوكبية من جزيرة العرب إلى جميع أنحاء العالم السامى تأثرت هناك بمؤثرات خارجية وعوامل أجنبية غيرت من صفاتها وطبيعتها ونعوتها ووظائفها ففى بابيلونيا مثلا اختلطت الديانة العربية السامية بالعناصر الصومرية وما شاكلها من العناصر غير السامية وتسبب عن ذلك أن أصبح القمر والشمس والزهرة تمثل ذوات الهية تختلف عن تلك التى كانت تمثلها فى الديانة العربية الخالصة التى تمثل الديانة السامية الأصلية فمن ذلك مثلا ان أخذت الالاهة « شمس » تحتل مقام الصدارة فى بابيلونيا وأصبحت أكثر أهمية وأرفع شأنا من القمر ( الاله سن أو ود ) وغدت تعتبر «إلها» لا « الاهة » ويشار إليها بالتذكير لا بالتأنيث (٤)

أما عشتر أو الزهرة الذى كان يعتبر ابنا للقمر والشمس ( أى للاله ود والالاهة

---

(١) Sayce, The Religions of Egypt and Babylonia, p. 482.

(٢) Nielsen, Der Dreieinige Gott, II, 1942.

(٣) Ibid p. 8, 96 ff.

(٤) Ibid p. 47 ff.

شمس ) فى الثالوث العربى القديم فقد تغيرت كذلك صورته فى بابيلونيا تحت تأثير العناصر الدينية الأجنبية فى تلك البلاد وصار يحتل المكانة التى كانت تشغلها «شمس» وأصبح يرمز إلى الأمومة و يشار إليه بالتأنيث أى أن طبيعة « عشتر» قد تغير من التذكير إلى التأنيث فى بابيلونيا وأصبحت عشتر أو عشتر هى الالهة الأم الهة الخصب والنتاج . وأما القمر — الإله سن — فقد بقى مذكراً ولكنه فقد مكانته بوصفه إله الزرع والنبات .

وقد حدث مثل هذا التحول أيضاً فى كنعان وفينيقية تحت تأثير البابليين فأصبحت الآلهة شمس تعبد هناك بوصفها إلها مذكراً لا آلهة مؤنثة وعشتر بوصفه مؤنثاً لا مذكرا . وصارا يعبدان على أنهما إلهان يمثلان الخصب والزراعة لا أنهما إلهان كوكبيان .

و يبدو أن الذى ساعد على ذلك التغير من الطبيعة الكوكبية إلى الطبيعة الأرضية هو ماحدث فى جزيرة العرب نفسها ، فثم وجدنا تلك الآلهه الكوكبيه قد شرعت تفقد بالتدريج صفتها النجميه وعلاقتها بالسماء وأصبح الاله القمر ( ود ) هو إله الريح والمطر والإلاهة شمس إلاهة الأرض والخصو به والاله عشتر أو الزهرة هو اله الزرع والنبع ، وأصبح عشتر هو عين الاله تموز و بعل وادونيس أى أن كل هذه نعوت لاله واحد هو عشتر[1] . وصار عشتر يمثل طبيعة ثنائية فهو إله النبع وماء المطر وما ينتج عنهما من نبات وزرع وهو كذلك إله الجفاف فى الصيف وسنزيد فى شرح ذلك بعد قليل .

و يرى نيلسن أن الآلهة الطبيعيه المتصلة بالأرض وخصو بتها عند الساميين الغربيين لم تكن آلهة منفصلة بل هى صفات قائمه بذات إله واحد هو الاله

---

(١) Ibid, p. 55 ff.

العربى القديم الممثل فى كوكب القمر والذى كان يدعى تارة « إلو » Ilu وتارة « ودا »[١] وأخرى « أبا » .

ومهما يكن من أمر فى أقدم النقوش السبئية نجد ثلاثة آلهة رئيسية أيضا وهى

المسه — وعثتر — وشمس[٢]

والمقاه هو أكثرها ذيوعا وذكراً فى تلك النقوش وكان بيته أكبر من بيوت الآلهة الأخرى . ولم يرد ذكره فى كتاب الأصنام لابن الكلبى . ويرى نيلسون أن المقاه هو اسم للإله سن اله القمر عند البابليين الذى صار كذلك أكبر الآلهة فى جزيرة العرب . وقد اكتشف هيكله حديثا فى حضرموت[٣] .

ولا ريب فى أن عبادة المقاه هى أحدث من عبادة عثتر . ويظن مورتمان Mordtimann أن الآلهة الثلاثة عثتر والمقاه وشمس تؤلف ثالوثا عند السبئيين يشبه الثالوث المكون من عثتر وود ونكرخ عند المعينيين[٤] .

وقد وجدنا اسم الاله عثتر كذلك فى النقوش القتبانية مقرونا باسم الالهين عمّ Amm وشمس . ووجدنا اسم عثتر يذكر أولا فى بعض هذه النقوش[٥] على الرغم من أن الإله عم Amm صار فيما بعد أكبر الالهة عند القتبانيين إذ كانوا يدعون أنفسهم « بنى عم » كما كان السبئيون يدعون أنفسهم « بنى المقاه » والمعينيون « بنى ود » .

وكان « عم » يعبد فى جزيرة العرب قبل أن كتبت النقوش القتبانية بقرون

---

(١) ibid, p. 97 ff.

(٢) CIS. pts. 4, Tom I No 74.

(٣) Caton-Thompson, The Moon Temple.

(٤) Nielsen. p. 199.

(٥) Nielsen, Neue Katabanische Inschriften. pp. 249, 263, 274, 281.

عديدة فقد حمل العموريون أو الأموريون Amorites عبادته معهم إلى بابلونيا وفلسطين فى نهاية الألف الثالث قبل الميلاد إذ المتفق عليه بين العلماء أن العموريين هم الذين أسسوا أسرة حمورابى أو عمورابى ببابلونيا فى سنة ٢١٠٠ ق م [١] وقد كانت عشتر معروفة كذلك لحمورابى [٢]

وقد ذاعت عبادة عشتر فى جميع أنحاء العالم السامى تحت أسماء مختلفة. فقد حمل الساميون «العرب» عبادته معهم إلى مصر فى عصور ماقبل التاريخ أى فى حدود الألف الخامس قبل الميلاد (نحو ٤٤٠٠ ق . م) وكان يعبد فى مصر باسم « أسر » أو عسر أو عثر أى اسيريس Osiris . ومعظم علماء المصريات المحدثون مجمعون على أن اسيريس من أصل سامى . ثم عبد كإلاهة باسم اسة أوعسة أوعثة وأصلها عشتر وهى ايزيس Isis والتاء الأخيرة للتأنيث وقد سقطت الراء بعد ادغامها فى التاء ومثل هذا كثير فى اللغة المصرية . وكان كلاهما يعبد أحيانا بوصفه الها للخصب والماء [٣]

وقد حمل العقاديون أو الاكاديون Akkadians عبادة عشتر إلى بابلونيا فى العصور القديمة . وكان يعبد هناك تحت اسم Ashtar و Ashdar عشتر أو عشدر وهى إلاهة لا إله . وقد ورد ذكرها فى اسمى ملكين من ملوك كيش القدماء وهما Ashdar Muti [٤] أشدر موتى و Enbi Ashdar [٥] انبى أشدر ثم

---

(١) هذا تبعا للتاريخ الطويل أما سدنى سمث فيرى أنها قامت بعد ذلك بنحو قرنين انظر كتابه Alalakh, 1940 .

(٢) قارن King's Letters and Inscriptions of Hammurabi, No. 66.

(٣) Breasted, The Development of Religious Thoughts in Ancient Egypt.

(٤) Barton, Royal Inscriptions, p. 352, 353.

(٥) Ibid, p. 6, 7.

حرف اسمها فى بابلونيا الى Ishtar وقد شاع هذا الاسم إلى آخر أيام البابليين والأشوريين . وقد عبدت كذلك كآلهة للحبّ والخصاد فى زمن جوديا Gudea ملك سومر أى فى أواخر الألف الثالث قبل الميلاد . وكانت تدعى عند الفينيقيين باسم Ashtart عشترة وعنهم أخذها الأغريق وسموها Astarte أما العبرانيون فقد حرفوا الاسم إلى Ashtoreth عشتورث . وقد ورد الاسم فى سفر الملوك الثانى فى الاصحاح الثالث والعشرين ( آية ١٣) وفى مؤاب (البلقاء) اندمجت عبادتها فى عبادة كمش [1] Chemosh وقد وردت فى حجر مؤاب باسم Ashtar عشتر . أما فى كنعان فقد وجدناها تعرف باسمين Ashtaroth عشتروث و Asherah وعشيره [2] . وقد ورد الاسمان فى ألواح تل العمارنة واستعمل نفس الرمز البابلى فى كتابة الاسمين إذ كان يعبدها فى ذلك الوقت قوم يدعون بنى عبد العشيرة [3] . وكانت عشتروث عند الكنعانيين إلاهة الكوكب الليلى « لزهرة » ويقول البريت Albright انها لابد أن كانت فى الاصل هى نفس الآلهة عشتر Ashtar إله كوكب الصباح المعروف لدينا فى نقوش مؤاب « البلقاء » واوكارت Ugarit أى رأس شمرا

أما عشيرة فكانت عند الكنعانيين إلاهة الماء أو البحر وقد ورد ذكرها فى ألواح راس شمرا Ugarit وهى تدعى هناك « عشيرة يمى » Athiratu-Yammi

---

(١) Cook, North Semtic inscriptions, p. I. ff.

(٢) Albright, Archeology and the Religion of Israel, 1942, p. 74 ff.

(٣) قارن JBL. Vol. X, p. 82.

وهى مشتقة من Athar «عثر» أى مشى فيكون معنى « عشيرة يمى » التى تمشى على الماء أو خواضة الماء ونلاحظ هنا أن الجزء الأول من الاسم الذى ورد فى ألواح رأس شمرا يشبه الاسم الذى ورد فى بعض النقوش القتبانيـة كما نوهنا بذلك آنفا فكلاهما يستعمل الشاء لا الشين والثاء هى الاصل كما سنبين ذلك فيما يلى وعلى هذا فلفظ عشـيرة قد يكون لغة فى عثيرة وقد يكون اسما دخيلا على جزيرة العرب دخل إليها مع عبادة هذه الإلاهة ويبدو أن البابليين كانوا يعتبرونها كذلك دخيله عليهم وأنها وردتهم من الساميين القاطنين إلى الغرب منهم [١] ونحن نعلم أن العرب عبدوا عشيرة وسموا بها فقالوا عبد العشيرة .

وقد عبدت عشيرة أيضاً فى «صور» فى القرن الخامس عشر قبل الميـلاد وكانت برالالهة وكانوا يطلقون عليها اسم Qudshu قدشو أى قدوسـة لو المقدسة . ففى قصة « كرت » المنقوشة على الواح رأس شمرا نجد العبارة الآتية Liqudshi atirtu Surrima « لقد شى عثيرة صور يما» أى لقد سبه عشترة الصوريين . وكانت تدعى فى هذه الألواح أيضاً Qâniyatu elima (قانية اليم) أى خالقة الآلهة . وكانت عبـادة عثتر أو عشيرة متصلة كل الاتصـال بالماء والخصب والنتاج والنسل عند جميع الشعوب السامية وهى كذلك تمثل الأمومة عندهم [٢] .

وقد ذكرنا آنفاً أن عثتر كان إله سقى النخل والخصب والنتاج فى ديانة العرب القديمة . ويبدو أن عثتر وعشيرة هما اسمان مترادفان يدلان على شىء واحد

---

(١) Lods, israel p. 134.

(٢) Albright. Archaeology and the Religion of Israel, p. 75.

كما يظهر ذلك من ألواح تل العمارنة . وقد ورد كذلك اسم عشيرة فى التوراة مرادفا لاسم عثتر[١] . وحرف اسم عثتر فى الحبشة إلى Astar« عستر » ومن هنا كان لفظ عستر معناه « الاله » فى النقوش الحبشية[٢] .

وكان عثتر يعبد فى صيغة المذكر فى جزيرة العرب وفى بابلونيا فى بادىء الأمر ولكنه صار يعبد بعد ذلك فى صورة إلاهة لا إله ولو أن اللفظ ظل مذكراً لا ينتهى بعلامة التأنيث إلا فى كنعان . وقد انتشرت عبادتها بهذا الوصف المؤنث فى جميع أنحاء العالم السامى حتى وجدنا صدى ذلك فى نقش من نقوش جزيرة العرب نفسها نشر بالمجلة الاسيوية[٣] ونقله بارتون فى كتابه «أصول الساميين والحاميين»

وقد ربط الكنعانيون عبادة عثتر وعشيرة وعناة بعبادة الاله بعل وصاروا يعدونه زوجاً لتلك الإلاهات الثلاث . وكان كذلك إله الماء والخصب عندهم .

وقد اختلف العلماء فى أصل اشتقاق عشتر أو عثتر أو عشيره . فمنهم من يرى أن الأصل ليس سامياً وأنه مشتق من كلمة صومريه معناها « اجتمع » أو مكان الاجتماع للعبادة وأن عبادتها دخيلة على الساميين .

والصحيح أن الأصل سامى يدليل وجود العين فى اسم هذه الإلاهة فى جميع اللغات السامية إلا فى البابلية والأشورية . ومن العلماء من يشتق الاسم من « أشور » أو من « حشر » أو من عشّر بمعنى كثر أو من الأصل الأرامى عثر . والراجح عندى أنه مشتق من عثر أى من الأصل العربى المشتق منه كلمة عاثور بمعنى القناة التى تحفر لسقى النخل كبعل . ومن ثم كانت عثتر هى إلاهة الخصب

---

(١) سفر القضاه اصحاح ٣ آية ٧

(٢) Lods Israel p. 133.

(٣) Journal Asiatic, 8 ser., Tom II, p. 256 ff.

والنتاج ممثلة فى النخل والماء . وقد وردت بهذا المعنى فى النقوش المعينية [١] . وكانت عشتر تدعى فى البابلية « منتجة الخضرة والنبات » [٢] .

وكانت عند الكنعانيين تمثل الماء والخصب . فلما قرن الكنعانيون عبادتها بعبادة الاله بعل أخذ بعل وظيفتها وصار هو إله الخصب وماء السقى بأنواعه كماء المطر والآبار والعيون . وقد وجدنا صدى ذلك عند العبرانيين . فكانت الأرض التى تسقى بماء الطبيعة كماء المزن والآبار تدعى فى المشنة والتلمود باسم « بيت بعل » أو « حقل بيت بعل » [٣] .

و بعل هنا هو « بعل شمايم » أى بعل السماء . ومن ثم كان له نصيب فى نتاج الأرض التى يسقيها بمائه . وقد فرق العبرانيون فى خراجهم بين زرع هذه الأرض و بين مايجلب إليه الماء بالرى الصناعى. وقد تحدرت هذه الفكرة إلى قدماء العرب وعلى ضوئها نستطيع أن نفسر بعض مظاهر نظم الخراج التى وجدت طريقها إلى الاسلام . فقد ورد فى كتب الفقه الاسلامى أن ما يجبى عليه العشر هو كل ما سقى بماء السماء والآبار والبعل . وورد فى البخارى أن كل ما سقى بماء السماء والآبار فهو عثرى [٤] و بمقارنة اللفظين نرى العلاقة واضحة بين بعل وعثر (أو عشتر) وهى علاقة قديمة جدا ترجع إلى عصر الكنعانيين كما ذكرنا آنفاً .

وقد قرنت عشتر بعبادة النخل والأشجار عند الساميين منذ قديم الزمان حتى أنهم كانوا يطلقون اسمها على كل صنم مصنوع من خشب كما ورد مراراً فى

---

(١) CIS Pt IV, Vol. I Nos. 5, 104 and 105

(٢) Hebraica, Vol x. p. 15,

(٣) Smith, Religion of the Semites, p. 97.

(٤) البخارى جزء ٢ ص ٦٤

التوراة[١] وكانت تمثل عادة بجذع شجرة فصلت عنه الأغصان .

وكان الساميون يعتقدون ان هذه الالاهة وماشاكلها تسكن جذوع الأشجار وأن أرواحها قادرة على البطش والانتقام [٢] . وقد ظل هذا الاعتقاد فى جزيرة العرب إلى ظهور الاسلام . فقد كانت عشتر تعرف فى شمال الجزيرة بأسماء أخرى منها اللات والعزى . وكانت العزى ممثلة فى شجرة ببطن نخلة . وكان العرب يعتقدون أنها شيطانة تأتى ثلاث سمرات . فلما فتح النبى صلى الله عليه وسلم مكة بعث خالد بن الوليد فقال له : إيت بطن نخلة فانك تجد ثلاث سمرات فاعضد الأولى فأتاها فعضدها . فلما جاء إليه قال : رأيت شيئاً ؟ قال : لا ، قال : فاعضد الثانية فأتاها فعضدها . ثم أتى النبى فقال : هل رأيت شيئاً ؟ قال : لا ، قال : فاعضد الثالثة فأتاها فاذا بحبشية ناشرة شعرها واضعة يدها على عاتقها ، تصرف بأنيابها فضربها فقلق رأسها فاذا هى حممة ثم عضد الشجرة ، وقتل سادنها [٣] .

تلك هى قصة ابن الكلبى فى العزى وهى تبين لنا الاعتقاد الذى كان لا يزال شائعا عند العرب إلى ظهور الاسلام . وهو اعتقاد كان متفشياً كذلك عند سائر الساميين .

وكان الاسرائيليون يعتقدون أن الشجر ينطق ويتكلم ويفعل ما يفعل الانسان [٤] . وكثيراً ما حدث فى أوقات الشدة والأزمات أن انصرف الاسرائيليون

---

(١) Albright, Archaeology and the Religion of Israel 1943, p.75

(٢) Smith Religion of the Semites, p. 132, 738.

(٣) ابن الكلبى كتاب الأصنام ص ٢٥ و ٢٦ .

(٤) سفر القضاة الاصحاح ٩ آية ٨

عن عبادة إلههم « يهوه » وعادوا إلى عبادة عشيرة « أى عشتر » فى صورة من الأشجار والأعواد . وقد نعى عليهم ذلك ارميا النبي ونعى عليهم قولهم « للعود أنت أبي وللحجر أنت ولدتنى »[١] . وقد وجد ربرتسن سميث وأشياع الطوطمية فى عبادة الأشجار عند الساميين شاهداً آخر على طوطميتهم . وذهب بعضهم إلى حد أن ارجع كل شعيرة دينية إلى أصل طوطمى[٢] كتقديم القرابين والتضحية والزرع والحرث والسقى وعبادة الحيوان وتقديس الأشجار . وهذا إغراق فى الحدس والتخمين .

والحق أن البحوث الحديثة قد أظهرت فساد رأى القائلين بعمومية الطوطمية وأن جميع الشعوب قد مرت بمرحلة الطوطمية فى وقت من أوقات تطورها الاجتماعى . وقد ثبت الآن أن نظام الطوطمية لا يسير على وتيرة واحدة عند الأمم التى لاتزال تمارس هذا النظام . فالطوطمية الاسترالية تختلف اختلافا عظيما عن طوطمية قبائل الهنود الحمر بشمال أمريكا مثلا

أما عن الطوطمية عند العرب والساميين فالظواهر التى اعتمد عليها ربرتسن سميث فى اثبات ذلك هى أنهم تسموا بأسماء الحيوان الذى اتخذوه طوطما وأنهم عبدوا الحيون ، وكانوا يعتقدون أنهم يمتون بصلة القربى إلى تلك الآلهة . . .

أما عن النقطة الأولى فقد أثبتنا فساد هذا الرأى وبينا أسباب تسميتهم بأسماء الحيوان وأنهم إنما كانوا يفعلون ذلك لصفات خاصة كانوا يلحظونها فيه لا لأنهم كانوا يعتقدون أنهم متحدرون حقيقة من الحيوان وأن دمه يجرى فى عروقهم .

---

(١) سفر ارميا اصحاح ٢ آية ٢٧

(٢) F. B. Jevons, Introduction to the History of Religion, (1904) pp. 206-225

وأما عن النقطة الثانية وهى عبادة الحيوان عند العرب قديماً فلا برهان على ذلك مطلقاً وليس ثمت دليل ولا شبه دليل واقعى يثبت أن قدماء العرب قد عبدوا الحيوان فعلا كما فعل قدماء المصريين وكما تفعل الشعوب الطوطمية الأخرى. وإنما كل ما هنالك أنهم عبدوا أصناماً على هيئة الحيوان وهى يغوث و يعوق ونسر وشتان ما بين العبادتين — عبادة الحيوان وعبادة الأصنام — فأصحاب الطوطم لا يعبدون أصناما و إنما يعبدون حيوانات يقدسونها و يعظمونها ويتجنبون أذاها و يسعون إلى رضاها ، ويمارسون نوعا من السحر والرقى لحفظ حياة الطوطم و بقائه سالما .

ثم إن العرب ربما أقاموا هذه الأصنام الثلاثة على صورة الحيوان لصفات كانوا يلحظونها فيها تشبه صفات الآلهة الأصلية . فقد ثبت أن بعض هذه الأسماء ومنها يغوث إنما هى نعوت وكنى تخفى وراءها اسم الاله الحقيقى [١] . ثم إن قدماء العرب بشهادة القرآن إنما كانوا يعبدون هذه الأصنام ليتقربوا بها إلى « الله » زلفى و إنما أرادوا بلفظ « الله » هنا إلههم الأكبر وكان يدعى « إل » أو « ئل » كما فى كلمة إسرائيل . وقد ورد اسمه مقرونا باسم عشتر فى نقوش جزيرة العرب [٢] . ويرى بعض العلماء أن الاله المسمى «المقاه» مكون فى الحقيقة من جزأين « إلْ » بمعنى إله و « مقاه » بمعنى الحافظ أو الحارس [٣] . وعلى هذا يكون « المقاه » معناه « إل ـ الحافظ » أى الاله الحافظ . وقد ورد الاسم بالهاء أيضاً مذكراً ومؤنثاً . فقد وجدنا فى النقوس اللحيانية وفى نقوش جنوب

---

(١) Wellhausen, Reste. etc. p. 22.

(٢) cf. Halevy, Nos. 144, 150.

(٣) Nielsen, Der Sabaean Gott Il-Makah.

الجزيرة لفظ إلاه ( اله ) والاهت للدلالة على أكبر الآلهة عندهم (١) .

ولفظ « إل » أو « ئل » هو أكثر الكلمات ذيوعا فى اللغات السامية للدلالة على ذات المعبود . أما لفظ « إله » فخاص باللغة الآرامية والعربية والكنعانية الشرقية كما كشفت عن ذلك ألواح رأس الشمرا . ففى تلك الألواح التى يرجع تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ورد الاسم بصيغة الجمع « ألوهيم » أو « إلاهيم » و « الوهوت » أو « الاهات » (٢) . ولذيوع هذا الاسم بين الساميين ذهب كثير من العلماء إلى أنه يدل على ديانة قديمة قوامها التوحيد (٣) بينما ذهب بعضهم إلى أن العرب والساميين إنما قصدوا بهذا الاسم اله القبيلة الأكبر . والراجح أن الاستعمال اللغوى هو الذى أدى بمرور الزمن إلى إدماج فكرة الآلهة فى إله واحد وأصبح لفظ الاله « بلام التعريف » أو « الله » يقصد منه الاله الواحد . وقد حدث مثل ذلك فى العبرية فلفظ « هألوهيم » بصيغة الجمع مع هاء التعريف معناه « الله » الواحد الأحد .

ومهما يكن من أمر فيرجح العلماء أن استعمال الاسم بهذا الوضع يدل على ميل عند قدماء العرب نحو « التوحيد » وخاصة وأنه كان يوصف فى نقوش جزيرة العرب بلفظ « رحمن » (٤) ويرى مرجوليث فى هذا الوصف أثر العرب فى اليهودية والمسيحية وأنه يدل على مرحلة متوسطة نحو الاسلام (٥) .

ونحن نضيف إلى كل هذا أن عبادة الأصنام ذاتها كانت دخيلة على العرب

---

(١) Neilsen, Handbuch, p. 190. 192. 217.

(٢) cf. Montgomery, The Ras Shamra Mythological Texts, 1935

(٣) Hammel, ancient Hebrew Tradition, p. 7(.

(٤) Nielsen, p. 196.

(٥) Margoliouth, Relations Between the Arabs and the Israelites p. 67. ff. and 21 ff.

وقد وردت إليهم فى العصور التاريخيـة على يد رجـل يدعى عمر بن لحى وهو ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدى . ويقول ابن الـكلبى [١] أنه كان كاهناً وأنه جلب هذه الأصنام من البلقاء ومن شط جدة وقدم بها مكة فنصبها حول الـكعبة . فحضر الحج فدعا العرب إلى عبادتها فأجابوه .

ومن كل ما قدمنا يتضح لك جليا ما يأتى :

أولا ـ أن العرب لم يمارسوا عبادة الحيوان مطلقا ولم نجد أثراً لهذه العبادة بين الشعوب السامية الأخرى .

ثانيا ـ أن عبادة يغوث و يعوق ونسر هى عبادة دخيلة على العرب حتى ولو كانت ترمز إلى عبادة الحيوان فعلا كما يتعلل بذلك أصحاب الطوطمية .

فقد أظهر ولهوزن [٢] أن يغوث نعت يخفى وراءه اسم اله قديم جداً قديكون من أصل حامى . وأما يعوق فقد كان صنما على هيئة الحصان . ولما كان الحصان غير معروف لدى قدماء الساميين ولا الحاميين فالراجح أن عبادة الحصان ـ على فرض وجودها ـ قد دخلت إلى جزيرة العرب تحت تأثير الفرس وأنها قد جاءتهم عن طريق البحرين كما يؤخذ ذلك من أقوال البلاذرى و ياقوت .

وكذلك نسر فقد ورد ذكره فى النقوش القتبانية والسبئية ، والراجح أن عبادته قد دخلت إلى جزيرة العرب من مصر ، ويرى ولهوزن أن عبادته كانت متصلة بالـكواكب وأنها تشير إلى مجموعة الـكواكب القريبة من المجرة

ثالثا — أن أقدم آلهة العرب كانت آلهة أرضية متصـلة بالتربة وبالسقى

---

(١) ابن الكلبى كتاب الأصنام ص ٨ ، ٥٤ .

(٢) Wellhausen, op. cit. p. 22; Barton. Semitic Origins p. 216

والخصب والنتاج وهذا أمر طبيعى لسكان البيد والصحراء . وقد وجدنا صداه فى تعظيم الأشجار والعيون والآبار .

وقد ظل هذا الاعتقاد شائعا بين العرب إلى عصر متأخر فقد كان الرجل منهم لا يظعن من مكة إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم . ويعلل ابن الكلبى لذلك بأنهم انما كانوا يفعلون هذا تعظيما للحرم وصبابة بمكة . ونحن لا نوافق ابن الكلبى على هذا التعليل بل نرى فى ذلك بقية من ديانة الساميين الأولى ونرى أن قدماء العرب انما كانوا يحتملون الأحجار فى أسفارهم لاعتقادهم أنها جزء من تربة تلك النواحى الخصبة التى يسكن الاله جذوع أشجارها ويروى بمائة مدرها وأحجارها . وبما أن الحجر هو جزء من تلك التربة ففيه شىء من روح الاله ولهذا كان العربى القديم يحتمله معه فى أسفاره تيمنا به وتفاؤلا حتى كان إذا وقع على بئر أو شجرة روى بمائها أو تغذى بثمرها ثم رفع عقيرته بالدعاء والتهليل بل كان حيثما حل يضع الحجر ويطوف به دلالة على الشكر والحمد والتعظيم والتوقير . وقد وجدنا آثار هذه العبادة الأولى عند قدماء العبرانيين . فهم بشهادة التوراة كانوا يعتقدون أن آلهم « يهوه » يسكن النيل والأشجار[1] وكانوا كثيراً ماينقلبون إلى عبادة الأحجار . كل ذلك دون وجود أثر للطوطمية بينهم .

بقى علينا أن نناقش نقطة أخرى احتج بها سمث فى اثبات الطوطمية عند العرب وقدماء الساميين قياسا على ماهو حادث عند الشعوب البدائية التى لاتزال تمارس الطوطمية إلى الآن . فهو يقول إن السبب فى تحريم الساميين أكل لحوم بعض الحيوانات يرجع إلى أنهم كانوا يعتقدون أنهم يمتون بصلة النسب إلى تلك

---

(١) سفر التثنية اصحاح ٣٣ آية ١٦

الحيوانات لأنها هى طوطم القبيلة . وهذا زعم لامبرر له مطلقا ولا تؤيده الشواهد العلمية . إذ لو صح ذلك لكان العرب قد حرموا لحم الثور والبكر ( الجمل ) والحمامة والعنز والفهد ( الجدى الحجازى ) والضبع وهو مالم يحدث مطلقا مع أن عشائرهم تسمت بهذه الأسماء . ولكان العبرانيون قد حرموا أكل الشاة والكبش والعجل للسبب ذاته . ولكنهم لم يفعلوا ذلك ولم ترد أسماؤها ضمن الحيوانات التى حرمت التوراة لحومها .

أما عن المظاهر الأخرى التى احتج بها سمث فى اثبات نظريته وهى التضحية الجماعية والوشم والزواج الخارجى — فيجب الآن اغفال أمرها لأن البحوث الحديثة قد أظهرت أنها ليست من الخواص القاصرة على الطوطمية .

والنتيجة التى وصلنا إليها بعد كثير من البحث والاستقصاء فى طوطمية الساميين تتلخص فيما يأتى : —

أولا — وجدت بين الساميين بعض عناصر اجتماعية تشبه المظاهر الشائعة بين القبائل الطوطمية كالتسمية بأسماء الحيوان والاعتقاد فى وجود علاقة بين الاله وقبيلته وأن لبعض أنواع الحيوان صفات خاصة خارقة للعادة .

ثانيا — من الممكن أن تكون هذه العناصر قد ظهرت أحياناً فى جزيرة العرب بشكل يحمل على الظن بوجود علاقة بينها و بين المظاهر الموجودة عند بعض القبائل الطوطمية .

ثالثاً — أن عبادة الأصنام وما ترمز اليه من حيوانات هى عبادة دخيلة على جزيرة العرب .

رابعاً — ليس ثمة دليل واقعى يدل على أن النظام الاجتماعى عند الساميين كان ذا صبغة طوطمية .

خامسا — لوكان الساميون قد عرفوا الطوطمية لكانوا قد حملوها معهم إلى مصر فى عصور ماقبل التاريخ ولكانوا قد مارسوها فى المقاطعات التى استقروا بها هنالك مع من مارسها من القبائل الحامية .

سادسا — كانت العشيرة السامية منذ أقدم العصور عشيرة إقليمية لا أثر فيها لوجود الطوطمية .

ومن كل هذا يتضح لنا أن قول ربرتسن سمث ومدرسته بطوطمية العرب والساميين هو قول مردود بالكلية .

ولننتقل الآن إلى النظام السياسى للعشيرة عند الساميين فنقول